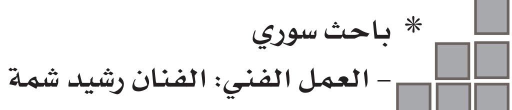
آفاق المعرفة



ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي

إبراهيم الصعبي *

تشكل ظاهرة الاغتراب ملمحاً جوهرياً في صلب الشعرية العربية القديمة والمعاصرة على السواء، ولعل انبثاق هذه الظاهرة يرجع إلى احتفاء الشعراء بأسفارهم وهجرتهم الحسية أو المعنوية التي تفضي إلى تكوين مخيلة شاعرة تسهم في إنتاج قصائد مميزة وذات دلالات وأبعاد أكثر عمقاً وإيغالاً في التعبير عن الذات ومقاربتها بالأرض. ولئن كانت ظاهرة الاغتراب مشكلة إنسانية عامة فإن أسبابها ومظاهرها ونتائجها تختلف من مجتمع إلى آخر مثلما تختلف



* باحث سوري
- العمل الفني: الفنان رشيد شمة

بين فرد يعانيها وفرد آخر، ويتخذ الاغتراب صــوراً ومضامين شتى فهو ديني أو ثقافي أو اقتصــادي أو سياســي أو نفسي، وقد يشعر المرء باغترابه عــن مجتمعه أو عن العالم كله، وأغلب المغتربين هم المثقفون أصحاب الحس المرهف والعاطفة المشبوبة، أو الفكر المهموم بالقضايــا الاجتماعية والمصيريــة والبحث المجهول، ومــن ثم تشيع هــذه الظاهرة بين الأدباء والفنانين كما تشيع بين المفكرين.

ويتبين من الاطلاع على الآثار الأدبية منذ أقدم العصور حتى اليوم أن الاغتراب ينبوع للشعراء المبدعين في الفنون القولية، فكم صوروا تلك التجربة الإنسانية ومعاناتهم ووقعها في نفوسهم وعقولهم، مع اختلاف في مضمونها ومغزاها بين مبدع وآخر حسب طبيعته ومكوناته البيئية والثقافية وظروف عصره السياسية والاجتماعية، وكل فنان صاحب رسالة مغترب إلا فيما ندر، إحساسه بالهوة الفاصلة بين العالم الواقعي الذي يعيش في غماره وبين عالم الخير والعدل المثالي الذي ينطلع إلى آفاقه، ويعبر الشاعر الرومانسي الإنكليزي «شيلي» عن هذه النزعة المثالية بقوله: «أني مسكون بشهوة تغيير هذا العالم». وفي معنى الغربة يقول أبو حيان التوحيدي مبدع كتاب «الإشارات الإلهية»: «الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول بل الغريب من واصله الغريب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب.. بل الغريب من صار غريباً عن وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه».

وتضرب ظاهرة الاغتراب في أعماق إبداعنا الشعري، فهناك غربة امرؤ القيس في قبيلته كندة بعد أن خذلته، فلم تعنه على آخذ الثأر لأبيه ابن حجر حينما قتله بعض أفرادها غيلة وهو زعيمها، فغادر قومه هؤلاء مكرها يضرب في الفيافي في طريقه إلى ملك الروم لعله يظفر بمناصرته حتى سمي بالملك الضليل، وأصابته القروح فيما يروي الرواة فسمي أيضاً ذا القروح، وما زال التاريخ يحفظ هذين البيتين اللذين يصور فيهما المفارقة بين السعي لطلب المال والسعي لطلب المجد:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفاني- ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وقال إنه أشفى على الهلاك وسيق إلى حفرة ليواري بها وجد بجوارها قبراً، فسأل عنه فقيل إنه قبر إحدى الأميرات، فأرسل



دمعه مدراراً وأنشد هذا البيت الذي لا ينسى:

أجارتنا إنا غريبان ها هنا

وكل غريب للغريب نسيب

ومن القصائد التي أبدعها شعراء ما قبل الإسلام وما زالت تشجينا حتى اليوم قصائد الشعراء الصعاليك ولا سيما أميرهم عروة بن الورد. فلقد ضاقوا ذرعاً بما وجدوه من تفاوت بين الناس في الثروات فتمردوا على مجتمعهم وأعلنوا العصيان على أعرافه وتقاليده، ونفوا أنفسهم بعيداً في البيد الشاسعة، حاملين السلاح مغيرين على أهل السّراء ليسلبوهم أموالهم ويعطوها للمحرومين والمعوزين. وقد عبر عروة عن هذا الدافع الذي ساقه إلى الثورة واقتسام ما يغنم بينه وبين العفاة بمقولته المأثورة: «أقسم جسمي في جسوم كثيرة». وأما عنترة العبسي فإن غربته في قومه هي غربة العبد المسترق دون أن يجني ذنباً، ولكنه قاوم شعوره بالدونية بإدارة غلب بها الأحرار الذين ساموه هوان العبودية، وتمثلت الإرادة في إتقانه فن الفروسية، فكان قائد سادته وموئلهم إذا شبت نيران الوغى. وقد عبر عنترة عن استغاثة قومه به بقوله على لسانهم في معلقته المشهورة: «ويك عنترة أقدم».

ومن الذين عزفوا على وتر الاغتراب الشجي قبل الإسلام شاعر آخر من أصحاب المعلقات وهو طرفة بن العبد، وما زالت معلقته الشغل الشاغل للنقاد العرب والمستشرقين لتصويرها حالات النفس في تموجها بين المأساة والبطولة، وتخبطها بين الوهم واليقين، وتعبيرها عن الهم الوجودي والاغتراب بين الصحراء والأهل، بين الإحساس بالعجز والإحباط والشعور بالتفرد في دوامة الصراع. إن صرخته المدوية وتساؤله الساخر ما يزالان يترددان ملء وجدان المتلقي وملء الزمن:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات، هل أنت مخلدي؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

إن هذا الشاعر الذي لقي حتفه في ربيعه السادس والعشرين (٥٣٨-٥٦٤هـ) متقولاً بأمر عمرو بن هند ملك الحيرة، تطاول قامته في تراثنا الشعري قبل الإسلام قامة زهير بن أبي سلمى الذي عمّر حتى تجاوز الثمانين عاماً فشكا من تكاليف الحياة إلى سئمها، ولكن ما أبعد البون بين زهير الذي يمثل ضمير الإنسان العاني لمأساة قابيل وهابيل المتجددة في قبيلتي عبس وذبيان، والباحث بين الركام والأشلاء عن وميض من الأمن والسلام، وبين طرفة المتمرد على الأعراف والتقاليد، والأبيقوري النزعة، والناقم على أهله الذين ظلموه فاغترب عنهم وقال بيته المشهور:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً

على المرء من وقع الحسام المهنّد

ومن عيون الشعر الاغتراب في صدر الإسلام مرثية مالك بن الريب التميمي لنفسه وهو يجود بآخر أنفاسه، وقد ارتمى طريح المرض على أرض غريبة بعيدة عن وطنه في طريق عودته من إحدى الغزوات التي حارب فيها المسلمون الروم في عهد بني أمية بعد أن استتابه سعيد بن العاص وجنده في الجيش، إذ كان مغامراً فاتكاً يسطو على أموال القوافل في الصحراء مثل صعاليك الجاهلية. وقد استهل مالك قصيدته هذه التي لم يرو عنه غيرها فهو من شعراء القصيدة الواحدة التي تعدل ديواناً بقوله:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة

بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى
مزار ولكن الغضا ليس دانيا

هكذا يجيش النغم الشجي منذ البداية، ويتفجر نهر من لوعة الحنين بل شلال من عذابات الفراق، وقد بلغ هذا النغم الذروة في الالتياع، لأن هذا الفراق هو الفراق الأبدي، ذلك أن الشاعر يملي قصيدته على رفيق دربه وهو على شفا حفرة من الموت غريباً عن الأرض والأحباء، وهو يذكرنا في شجوه وضياعه بقول شاعر آخر من العصر الأموي أيضاً وهو علي بن الجهم:

ويلتا للغريب في البلد النازح
ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا
بالعيش من بعده ولا انتفعا

ومن أبلغ الشعراء الذين صوروا الغربة الشاعر العباسي المجدد أبو تمام الطائي في مدائحه ومراثيه وإن دلت بعض أبياته على أنه يعني نفسه أيضاً، فقد كان يرى أن الأديب غريب في مجتمعه وعالمه، والبيت الثالث في المقطوعة الآتية يشي بهذا المعنى: غربته العلا على كثرة الأهل فأضحى في الأقربين جنيبا فليطل عمره فلو بات في «مرو» مقيماً بها لبات غريبا سكن الكيد فيهمو إن من أعظم إرب ألا تكون أديباً وأرادوك بالبيان ومن هذا يردى متالعاً أو عسيبا وإذا الصنع كان وحشاً فمليت برغم الزمان صنعاً أريبا.

ولأبي تمام بيتان يتحدث فيهما عن غربة الشعر في زمنه وموته بسبب هذه الغربة، ويقول في ذلك معنى مبتكراً وهو أن الشعر رثى نفسه باكياً حزيناً حين لم يجد من يوجه إليه الرثاء:

ألا أن نفس الشعر هانت وإن يكن
عداها حمام الموت وهي تنازع
سأبكي القوافي بالقوافي فإنها
عليها- ولم تظلم بذاك- فواجع

وقد كان أبو تمام يرى أن السبيل إلى خلاص الأدباء عامة والشعراء خاصة من اغترابهم بين الناس هو تواصلهم فيما بينهم، فالشعر عنده هو من قبل ومن بعد قرابة حميمة ونسب جامع كما عبر عنه في هذا البيت من قصيدة مدح بها صديقه الشاعر علي بن الجهم:

إن لم يكن نسبٌ يؤلف بيننا
أدب أقمناه مقام الوالد

فالأدب كما ينبغي أن ينظر إليه هو الأدب الذي ينحدر من صلبه الأدباء جميعاً وهم أبناؤه البررة، وحريّ أن يحتفظوا على صلة الرحم ويرعوا حق الأخوة.

ومن أكبر شعراء الاغتراب العربي أبو الطيب المتنبي، إذ تتضح قصائده شعوراً ممضاً باغترابه في وطنه وفي عصره لعوامل يختلف بشأنها الباحثون، ولكن الإجماع منعقد على أن خيبات أمله المتعاقبة في شغل مكانة تليق بعبقريته، وكان هذا الشعور الذي لم يفارقه طوال حياته التي قضاها متنقلاً كالشريد من بلدة إلى أخرى، باحثاً عن أميرٍ يقدر مواهبه، ويعامله معاملة الند للند، فيفسح له مكاناً بين الولادة ويحقق طموحه إلى الجاه العريض. لقد خذله سيف الدولة بعد أن أوقع الوشاة الحاقدون بينهما، فولّى وجهه شطر كافور الاخشيدي بمصر فكان المستجير من الرمضاء بالنار، ولقد تعقب المتنبي سوء طالعه منذ مطلع شبابه، إذ يروى أنه اشترك مع القرامطة في ثورتهم التي قضى عليها، ومن قبل –وهو لم يزل فتيا– تملكه الزهو والكبرياء لإدراكه عظمة نفسه بشعره وفروسيته:

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي؟ ما أبتغي جلّ أن يسمى
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني
ولا صحبتني مهجة تقبل الضيما

ويعد المتنبي أغزر الشعراء في جميع العصور العربية حديثاً عن الاغتراب وتصويراً لمعاناته فذا غير مسبوق، وأليس هو القائل:

لحى الله ذي الدنيا مناخاً لراكب
فكل بعيد الهم فيها معذب

ومن ذا الذي ينسى قوله في الفخر بنفسه وإحساسه بالغربة في مجتمعه:

تغرّب لا مستعظماً غير نفسه
ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

وقوله في التعبير عن قلقه وغربته:

على قلق كأن الريح تحتي
لأوجهها جنوباً أو شمالاً

ومن شعراء عصر المتنبي الذين عانوا الغربة شاعر العربية الكبير أبو فراس الحمداني، إذ وقع أسيراً في قبضة الروم في إحدى المعارك الحربية، وطال أسره، واشتدت عليه البلوى حين أرسل إلى سيف الدولة أمير حلب كي يفتديه، فتبطأ في الاستجابة له وهو ابن عمه الذي خاض الحروب معه دفاعاً عن العقيدة والدولة الإسلامية، وتعد قصائد أبي فراس مأثورات متفردة في تصوير الفروسية العربية وشجون المقاتل المأسور وهموم العاشق، ويكفي أن نتذكر قصيدته التي يناجي فيها حمامة تنعم بالحرية وهو رهن السدود والقيود:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة
أيـا جـارتـا لـو تعلمين بحالي
معاذ الهوى ما أنصف الدهر بيننا
تعالي أقاسمك الهموم تعالي

ومن قبل المتنبي وأبي فراس الحمداني عرف الشعر العربي في العصر العباسي الأول صوتاً متميزاً هو صوت ابن الرومي الذي وصفه العقاد بقوله إنه الطائر الغريد في غير سربه، وذلك في كتابه القيم (ابن الرومي حياته من شعره) الذي طرق نهجاً فريداً في النقد الأدبي، وما زالت آراؤه فيه صحيحة رغم مضي أكثر من ستين عاماً على تأليف هذا الكتاب الذي انصف ابن الرومي وأزال عنه النسيان وما لقيه في عصره وبعد مماته من إهمال الباحثين والنقاد.

لم يكن ابن الرومي في مثل طموح المتنبي، بل كان قصارى متمناه أن يعيش عيشة كريمة مثل الشاعر البحتري الذي كان معاصراً له في عهد الخليفة المتوكل، فلقد نال البحتري ما حرمه ابن الرومي من مال وجاه، فازداد شعور الثاني بالاغتراب لأن أحداً من ممدوحيه أمراء وولاة وسراة لم يصغ إليه ويجزه كما استمع إلى البحتري وأجزل له، على الرغم من أنه لا يفضله في شعره وربما تفوق عليه ابن الرومي، فلا غرو أن يقول هذا الطائر الغريب المحروم تعبيراً عن غربته بين قوم لا يفقهون حديثه ولا يقدرون موهبته:

لم أكن دون مالكي هذه الأملاك
لـو أنصف الـزمـان المحابي

وحين لا يجد صدى لغنائه يهجو ظالميه ويمجد إبداعه الشعري:

شعري شعر إذا تأمله الإنسان
ذو العقل والحجى عبده
لكنني لست بالمفهم البهائم والطير
سليمان قاهر المرده

وعلي بن الرومي هو صاحب هذين البيتين اللذين يرددهما الأدباء المغتربون:

عصر سما قدره الوضيع به
وغدا الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤة
سفلاً وتطفو فوقه جيفه!!

ويتجلى بين شعراء الاغتراب صوت لا مثيل في العربية لأنه يمثل غربة المفكر ذي النزعة الإنسانية والفلسفة الكونية، غربة الروح المغلّل في قيود الجسد الطيني بشهواته وأدرانه وغروره وعجزه. إنه أبو العلاء المعري سجين المحبسين بل المحابس الثلاثة كما قال:

وتواصل شدو الشعراء وترجيعهم أعذب الألحان وأشجاها على أوتار الغربة، فيثيرون في نفس المتلقي أعمق المشاعر ويزيدونه عراقة في إنسانيته، إذ يرتفعون به من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية والإبداع. ■■

الهوامش

١- كتاب الاغتراب، تأليف ريتشارد شاخت، ترجمة كامل يوسف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٢- ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق دكتور عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥.

٣- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن برقوق، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤- خلاصة التوحيدي- مختارات من نثر أبي حيان التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٥.

